

الفصل الثالث عشر:

الأمويون وفلسطين

ريدة خضر البرعى

لم يكن كل العصر الإسلامي مثاليًا، بل لطالما شابته الشوائب، وتخللته المؤامرات، ولعل خير دليل على ذلك هو انتصار معاوية بن أبي سفيان على عليّ بن أبي طالب، مؤسساً بذلك الدولة الأموية.

تنسب الدولة الأموية إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وكان سيداً من سادة قريش ومتنافساً مع ابن عمه، هاشم بن عبد مناف، على الرياسة والشرف، وقد تجمع لأمية عناصر السلطان في الجاهلية، فهو من أرومة جيدة، وله مال كثير، وعشرة من الأولاد النجباء، وإذا تجمعت لشخص هذه العناصر في الجاهلية يكون قد ضمن الشرف^(١).

ظل التنافس قائماً بين بنى هاشم وبنى أمية، إلى أن دخل بنو هاشم الإسلام، وانقلبت العلاقة بينهما إلى عدااء ظاهر، حيث وقف بنو أمية موقفاً حازماً ضد الرسول، ودعوته، ولم يدخل بنو أمية الإسلام، إلا بعد أن سدّت كل الطرق في وجوههم، وذلك عندما زحف محمد صلى الله عليه وسلم بألف من المؤمنين، يدخل بهم مكة، وبهذا كان بنو أمية من أشد أعداء الإسلام، ومن المتأخرين في الدخول فيه، ولكم ما إن دخلوا فيه، حتى أظهروا بطوله رائعة. وقد فقد أبو سفيان، زعيم أمية، إحدى عينيه، وهو يشترك مع الرسول، في إحدى غزواته، ثم فقد الأخرى في موقعة

اليرموك وهو يقاتل تحت إمرة ابنه يزيد. ويروى أن زوجته كانت تشترك في حروب الفتوح^(٢).

كما أن النبي صلى الله عليه وسلم راضى بنى أميه وجعل لهم امتيازات خاصة، فقال عند دخوله مكة " من دخل دار أبي سفيان فهو آمن "، وأعطى من غنائم حنين لكل من أبي سفيان وابنه معاوية مائة بعير، ليتألفا، فكانا ضمن المؤلفه قلوبهم، وأصبح معاوية من كُتاب وحي النبي^(٣).

كان يزيد بن أبي سفيان قائد أحد الجيوش الأربعة، التي وجهها أبو بكر لفتح الشام، وجعل يزيد من دمشق وجهته، ولما أراد أبو بكر أن يرسل مدداً لهذه الجيوش، كان معاوية على رأس المدد الذي أرسله ليزيد، وحارب معاوية تحت إمرة أخيه. وتولى الفيلق الذي فتح صيدا وببيروت وغيرهما من مدن سواحل الشام. ولما تم النصر للمسلمين، في عهد عمر، ولي يزيد ولاية دمشق، وجعل معاوية والياً على الأردن، وتوفي يزيد في طاعون عمواس، في عهد عمر، فضم معاوية ولاية دمشق إلى ولايته^(٤).

تطلع بنو أمية للخلافة، منذ عهدا الباكر، على أنه لم يكن لهم فيها أمل، في عهد أبي بكر، وعمر. ودخل معاوية على أبيه، حينما استعمله عمر على الشام، فقال له أبوه. " يا بني إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا، وتأخرنا، فرقعهم سبقهم، وقصر بنا تأخرنا، قصرنا أتباعاً وصاروا قادة، وقد قلدوك جسيماً من أمرهم، فلا تخالفن أمرهم، فإنك تجرى إلى أمد لن تبلغه، وإن بلغت لتنفست فيه ". واستجاب معاوية لرأى

والده، الذي نصحه، فأحسن السيرة، ومهد لنفسه في الشام^(٥).

بعد ما تولى عثمان الخلافة، انفجرت أسباب السخط في ولايات شتى، ودعا الناثرون إلى إصلاح أحوال المسلمين، وتخفيف الفروق بين الأغنياء والفقراء، بزعم أن العرب الذين نزحوا إلى الولايات المفتوحة حصلوا على ثروات كبيرة، في حين كان جوارهم بعض المسلمون يحيون حياة أقرب إلى التقشف. وتجمع أهل الكوفة والبصرة ومصر وضربوا حصارًا حول دار عثمان (شوال ٣٥ هـ / ٦٥٥ م) أربعين يومًا، ثم دخلوا دار عثمان، يتقدمهم محمد بن أبي بكر، وقتلوه، يوم الجمعة، الثامن عشر من ذي الحجة سنة ٣٥ هـ / ٦٦٥ م). بمقتل عثمان تمت مبايعة علي بن أبي طالب، وبايعه أهل مصر والكوفة والبصرة، ولكن معاوية، الذي كان واليًا على الشام، رفض مبايعته، ودعا أهل الشام ورؤساء الأجناد، لتحريضهم على الوفاء للخليفة المظلوم (عثمان) والطلب بدمه. وهنا ظهر عمرو بن العاص، الذي وجد على عثمان، حين عزله عن مصر، فلما اندلعت الثورة على عثمان، كان ابن العاص من المعارضين لعثمان، وعندما وصلت الثورة إلى غايتها، أثار ابن العاص أن يعتزلها، فخرج إلى إلى أرض يملكها بفلسطين، وأقام بها، ولما جاءه نبا بمقتل عثمان قال "ماحككت قرحه إلا وأدميتها". وانضم ابن العاص إلى معاوية، حيث اجتمعت المصلحة بينهما، فعمرو أراد ولاية مصر، فيما أدرك معاوية بأن عمرو داهية من دواهي العرب، وشيخًا ذا مكانة من شيوخ قریش، وهو صاحب حرب ومكيدة، فتح فلسطين ومصر، واطمأن عمر بن الخطاب إليه، منذ فتح مصر. فضمه معاوية إلى

معاونيه. (٦).

يعد علي بن أبي طالب من أخطر فرسان المسلمين، فهو المحارب الذي لم يُهزم، أبدأ، حتى حين نشب القتال بينه وبين معاوية، انتصر على حتى اضطر جيش معاوية أن يرفع المصاحف على الحراب، طلباً لوقف القتال، والاحتكام للقرآن. وعندما طعن عبد الرحمن بن ملجم الحميري على بن أبي طالب، خلا الأمر لمعاوية (٧).

هكذا نجح الإسلام في تقويض المجتمع العبودي، وحاول الخلفاء الراشدون بناء مجتمع مثالي فيما أدت تحالفات الخليفة الثاني، عمر بن الخطاب، إلى تعزيز موقع بنى أمية في النظام الحاكم، ثم أعطى عثمان بنى أمية دفعات قوية إلى الأمام، وحاباهم في المال والسلطة، وحين وصل إلى موقع الخليفة على بن أبي طالب، جوبه بمعارضة قوية من ممثلي الإقطاع، المتمثلين في بنى أمية الذين استقوا بالمؤامرات، فيما لاذ على بالأساليب المبدئية، في الصراع مع بنى أمية، فكانت الغلبة للآخرين، على النحو المعروف.

بدأت فلسطين مرحلة جديدة من مراحل حياتها، حين أعلن معاوية بن أبي سفيان نفسه خليفة، واستهل عهده بالذهاب إلى بيت المقدس، حيث أعلن خلافته في العام ٤٠ هـ / ٦٦١ م (٨).

بعد مقتل على، قامت بعض المحاولات من أجل البيعة للحسن بن على. وقد بويع بالفعل من بعض الشيعة، لكن الحسن كان قد عاصر المشكلات التي عاناها أبوه، وعرف أن أباه لم يستطيع التغلب عليها، وإذا

كان البطل قد عجز عن حل المشكلات، فما أجدى بالحسن أن يطلب السلامة، إيماناً منه بأن تيار الأحداث كان أقوى منه. وتم الصلح بين معاوية والحسن، وتنازل الثاني للأول عن الخلافة، مقابل بعض الشروط، عام ٤١ هـ / ٦٦٢ م^(٩).

انقسمت الشام في العصر الأموي إلى أجناد خمسة هي: جند دمشق، وجند حمص، وجند فلسطين، وجند الأردن، وجند قنسرين. وتبعث جند فلسطين أقاليم التيه والجفار وكلاهما على الحدود مع مصر. وكانت اللد عاصمة هذا الجند، وعندما أنشأ الخليفة الأموي، سليمان بن عبد الملك، مدينه الرمله جعلها عاصمه الجند الجديدة للجند. وأكبر مدن جند فلسطين هي القدس. ورغم ضيق مساحتها، فإن بها حوالي عشرين مسجداً. وجند فلسطين هي اخصب سوريا ومن مدنها عسقلان والرملة وغزة أرسوف وقيساريه ونابلس وأريحا وعمان وياقا وبيت جبرين ومعظم أراضيها جبلية، والسهول فيها قليلة، وجند الأردن يتبعه كور الغور المنطقة الواقعة حول البحر الميت، وعاصمه هذا الجند طبريه، ويتبع الجند السامرة (نابلس) وبيسان وصفد وجرش وعكا وصور^(١٠).

حين تولى معاوية بن أبي سفيان الخلافة، جعل من دمشق عاصمه لخلافته وتولى حسان بن مالك جند فلسطين والأردن، فيما كانت فلسطين، عند قيام الفتح الإسلامي، تضم عناصر سكانية متعددة، من الروم، والفرس، والزنج، واليهود، والسامرة، فيما كان العرب أهم هذه العناصر، وكانوا قبائل انتشرت في جنوب فلسطين وشرقها وفي البادية وهم في

الغالب من العرب المستعربه مثل قبائل غسان ولخم وجذام وعامله والقسين وبهراء وكلب وسواها وكان عدد كبير من افراد هذه القبائل يدين بالنصرانية، ووقف بعدهم أبان الفتح إلى جانب الروم والبيزنطيين وتحاولوا بعد ذلك إلى الإسلام وقد نزل الأمويين في بقاع مختلفة من جندى الأردن وفلسطين في أبله وبقاع ومعان والبلقاء ووادي الأردن والساحل الفلسطيني وبئر السبع، كذلك نزلت جماعة بنى مخزوم في منطقته غزة وعمل بنو امية على ائتلاف هذه القبائل إذ كان لبعضها علاقات تجارية مع الأمويين قبل الإسلام ومعاقبة منذ أن كان واليًا على الشام، أنزل العرب بمواضيع نائية عن المدن والقرى ومنحهم حق استغلال الأراضي التي لاحق فيها لأحد ثم ما لبث أن ملكهم أياها وصار خلفاؤه من بعده على هذه السياسة الأمر الذي أدى إلى نشوء إقطاع عربى واسع في بلاد الشام عموماً وفي فلسطين بخاصة^(١١).

إلى جانب طبقة المسلمين العرب ثمة فئة ثانية من الأهالى هي فئة الموالى وهم المسلمون من الأعاجم ومعظمهم من الأراميين والسريان وهم السكان الأصليين الذين اعتنقوا الإسلام وكان رأب هؤلاء ان يلتحقوا ببعض القبائل العربية عن طريق الولاء فيعتبرون من أفرادها ويحتسبون من موالىها لكن التحاقهم بالعرب على هذه الصورة أدى إلى اعتبارهم الطبقة الاجتماعية الدنيا في البيئة الإسلامية فامتعضوا لذلك أشد الامتعاض وأظهروا هذه المرارة التي ملأت نفوسهم بانحيازهم إلى الشيعة في العراق وإلى الخوارج في فارس ولقد كان الموالى هم السابقون في

المجتمع الإسلامي إلى تركيز جهودهم على العناية بالابحاث العلمية والفنون الجميلة. وما أن أظهروا تفوقهم على العرب في ميدان العلم والفكر، حتى أخذوا ينافسونهم في تولى الزعامة السياسية، ثم نتج عن اختلاط الموالى بالعرب، عن طريق الزواج، إلى تهجين الدم العربي، وحتى آل الأمر، أخيراً، إلى إطلاق لفظة "عربي" على جميع المسلمين الذين تحدثوا العربية، دون اعتبار العرق، الذي تحدثوا منه^(١٢).

أما السكان الغير المسلمين، فكانوا في عداد أهل الذمة، والمراد بهم اليهود، والنصارى، ذلك أن الإسلام شملهم بالأمان، وصانهم بالعهود، والمواثيق، وكان يفرض على أهل الذمة الجزية، واستثنى منها الأطفال والنساء والشيوخ ورجال الدين والفقراء والمرضى وسواهم. وكان معاوية، وابنه يزيد، ومن بعدهما عبد الملك، وسواهم من خلفاء بنى أمية يعتمدون أهل الذمة في إدارة الدولة، فقط كان سيرجون بن منصور من موالى معاوية، ويكتب له الديوان، وخلفه ابن يوحنا (يوحنا الدمشقي) في خدمة معاوية، ثم ابنه يزيد. وإلى جانب النصارى كان هناك قلة من اليهود و السامرة، وكان النصارى يقيمون في المدن، خاصة بيت المقدس والمدن الساحليه عدا الأديرة، أما السامرة فكانوا يقيمون في مدينه نابلس والرملة، فيما تشتت اليهود في بعض المدن، باستثناء بيت المقدس أما الطبقة الرابعة في المجتمع فكانت طبقة الرقيق^(١٣).

التنظيم الإداري:

وضع أبو بكر الصديق أولى لبنات التنظيم الإداري للدولة، حيث قال في خطابه للمسلمين: " لا بد لكم من رجل، يتولى أمركم ويصلي بكم، ويقا تل عدوكم ". لكن عمر بن الخطاب هو الذي وضع أسس النظام الإداري لدولة الإسلام، وقرر مبدأ مركزية السلطة، معتبراً أن الخليفة هو المسئول الأول عن إدارة شئون الدولة، وفق مبادئ الدين الجديد، لذا نهج نهجاً إدارياً، خلاصته أن من يتولى أمور الأقاليم مسؤول، مسئولية مباشرة أمامه.

وسار عثمان على نهج عمر، ولكنه انساق مع مطامع بعض أقربائه من أفراد العائلة الأموية الذين استغلوا صلة قرباهم به ليحققوا المكاسب لأنفسهم ويتولوا أعلى المناصب، الأمر الذي كان من جملة الأسباب التي أدت إلى الثورة على عثمان ولأن عهد الخلفاء الراشدين، ولا سيما عمر بن الخطاب، امتلأ بالفتوحات، لذا لم يستقر التنظيم الإداري، وبأخذ شكله النهائي إلا في العهد الأموي^(١٤).

في خلافة أبي بكر ظهرت فكرة مركزية السلطة، وظهر ذلك باعتبار الخليفة، رئيس الدولة، له حق اختيار من يشاء، لتصرف شئون الإدارة والحكم، وهو المسئول الأول عن أعمال من يختارهم، لأنهم خاضعون له ويعملون باسمه. ودافع أبو بكر دفاعاً مستميتاً عن مركزية السلطة، وأرادت بعض القبائل أن تستقل بواردات الزكاة، وألا ترسلها إلى المدينة، فرفض أبو بكر، وأقسم أنهم لو منعوه عقال بعير، كان يعطونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلهم من أجله. وسار على نهج أبو

بكر كل من عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، إلا أن خلفاء بني أمية، وعلى رأسهم معاوية بن أبي سفيان، اتبعوا اللامركزية، في الإدارة سبيلاً لإعادة الاستقرار في الدولة الإسلامية، في ظل ظروف نجمت عن مقتل عثمان، والصراع على السلطة بينه وبين علي بن أبي طالب، وبروز العصبية الإقليمية، التي تمثلت، بشكل واضح، في اتساع شقة الخلاف بين الشام والعراق، هذا فضلاً عن رغبة معاوية في توسيع رقعة الدولة، واستكمال عملية الفتوح في أقاليم تبعد عن العاصمة، دمشق، كثيراً. كما أن العمل الإداري في الأقاليم والأجناد لم يكن مسئولية الوالي وحده، بل كان يعاونه موظفون، يقيمون معه في الجند، ويمثلون مختلف الوظائف التي تشكل ما كان يُعرف " بالديوان "، الذي أسسه معاوية، وهو مكتب حكومي مهمته أن يستخرج نسخة من كل وثيقة رسمية، قبل أن تُختم، وترسل في سبيلها^(١٥).

بيد انه يعزى إلى ابن الخطاب وضع أسس الإدارة المالية، وحين دَوَّن الدواوين أفرد للأمور المالية ديواناً خاصاً وقد أنشئ لديوان الجند في الأردن وفلسطين ديواناً خاصاً اتت أهم موارده من الزكاة والخراج، والجزية والعشور. أما الزكاة فتفرض على المسلمين، فيما تؤخذ الجزية على رؤوس أهل الذمة. وأهل الذمة في الأردن وفلسطين هم النصارى واليهود والسامرة، فيما الخراج هو الضريبة على الأرض الزراعية والعشور الضريبة على التجارة التي تقدم على ديار المسلمين. ويقابل هذه الوارادت نفقات تترتب على بيت المال. وقد اشتملت سجلات بيت المال على جانب النفقات كما اشتملت على جانب الواردات، وأهم وجوه النفقات

هي العطاء، وهو المال الذي تفرضه الدولة للمسلمين المثبتين بالديوان، وفي خلافة بني أمية كان العطاء بين الزيادة والنقصان، وقد زاد معاوية العطاء لأهل الشام^(١٦).

الصناعة والزراعة:

في مجال الصناعة اشتهرت الشام، عمومًا، ومدنها القديمة بصناعة الخزف، وقد حافظت على هذه الشهرة على مدى عصور التاريخ الإسلامي، وبخاصة الخزف المنقوش وكذلك الزجاج، وقد وصف زجاج الشام العديد من الرحالة، وضُرب به المثل في الرقة والصفاء، حتى قيل " أرق من زجاج الشام"، أو " أصفى من زجاج الشام"، وقد مهرّوا في زخرفته بالذهب وتلوينه بألوان زاهية، وبلغوا درجة كبيرة في الإتقان في ذلك، وكان الزجاج الملون يصدر إلى بقاع شتى في العالم. وكان صناعة الفسيفساء من أشهر صناعات بلاد الشام وقد شاهد الرحالة المقدسي جدران وأروقة المسجد الحرام، وقد زينت بالفسيفساء من أشهر صناعات بلاد الشام، وكذلك امتازت الشام بصناعة الأقمشة الحريرية (الدمقس أو الدمسكو) ويذكر أن طبرية كانت تنسج نسيجًا أبيض تصنعه ثيابًا، وكان ثمن الثوب منه اربعمائة درهم، لجودته، ومن الصناعات التي اشتهرت، صناعة الحرير. وأشتهرت طبرية بصناعة الورق هذا فضلًا عن صناعات أخرى: كصناعة السكر، على الساحل، بالقرب من عكا، وصناعة السفن في عكا، وصناعة السُبح في القدس، أما الزراعة، فقد وفرت، فترة صدر الإسلام وخلافة بني أمية للشام الأمن والاستقرار، ونجحت على حد كبير، في إيقاف الصراع بين البدو والزراع، وأحلت

التعاون بين الجانبين، كما توفرت الاموال اللازمة للاستثمار والتطوير، وهيأت السبل اللازمة لعناية أفضل بمنشآت الري، وتوسيع نطاق الأرض المزروعة المعتمدة على نظام دائم للري. هذا فضلاً عن إدخال زراعات جديدة، والاتجاه إلى الاهتمام بالمزروعات التي تصلح للتسويق لا للاستهلاك فحسب، كقصب السكر والقطن وسواهما (١٧).

الثروة الحيوانية:

كانت الثروة الحيوانية في فلسطين متنوعة، فقد كانت الاغنام تُربى في منطقة عمان، كما انتشرت تربية الجاموس، من شمال الشام إلى جنوبها، واعتمد أهالي فلسطين في غذائهم على لحمه ولبنه، واستخدم الجاموس في مناطق كثيرة للأعمال الزراعية. اما البقر فلم يكن لحمه مستساغاً وكان يُربى للانتفاع بلبنه، واهتم أهالي الشام ومنهم أهل فلسطين، بتربيته الخيل، والبغال، والحمير، ومن الطيور اهتموا بتربية الأوز، والدجاج، والحمام، وكما برعوا في تربية النحل لاستخراج العسل، وكان العسل عندهم أنواعاً عدة وأفضله من نبات السعتر (الزعر) في الأراضي المحيطة بالقدس، وجبل عامله، أما السمك فكانوا يستخرجونه من بحيرة طبرية، وخليج العقبة (١٨).

الحياة الفكرية والعمرانية:

من أهم مظاهر التحول الفكري في فلسطين بعد الفتح، هو تضاؤل، ومن ثم انحسار الثقافة الهيلينية والسريانية، وحلول الفكر العربي والإسلامي محلها. والشام من أقدم مراكز الحضارة في العالم وأن أرضها شهدت عملية تمازج ثقافي دائم، إذا التفت على أرضها حضارة الفراعنة

والكنعانيين، وفكرهم ومنجزاتهم، بحضارات ما بين النهرين، ومن ثم باليونان، والرومان، الذين أقاموا وجودًا سياسيًا على أرضها وخلفوا وراءهم آثارًا مادية (١٩).

النقود:

كان العرب قبل الإسلام، يعرفون الدراهم الساسانية والبيزنطية، ويستعملونها، وذلك بسبب اتجارهم مع البلدان التي كانت تستعمل نقود هاتين الامبراطوريتين، وأول من ضرب الدراهم والدنانير العربية في الإسلام هو الخليفة عبد الملك بن مروان وقد سميت الدنانير التي ضربها عبد الملك "الدمشقية". ويذكر ان عبد الملك اصدر ديناراً عربياً عام ٧٤ هـ - ٦٩٣ م " عليه صورة ترمز إلى الخليفة، واقفا يهيم باستلال سيفه من غمده رمزا للتحدي القوي لامبراطور القسطنطينية، الذي كان طامعاً باسترداد مدن الشام " (٢٠).

الوراثة في الدولة الاموية:

بدأ معاوية بالمبايعة لابنه يزيد سنة ٤٩ هـ - ٦٧٠م. ويروى ان معاوية كتب إلى المغيرة بن شعبه، وكان واليًا على الكوفة، آنذاك، يقول: " اذا قرأت كتابي، فأقبل معزولاً، فابطأ المغيرة على معاوية فلما حضر، سأله: " ما بطأ ". فأجاب " أمرا كنت أوطئه، وأهينته "، قال: وما هو، قال، " البيعة ليزيد من بعدك "، قال: أوقد فعلت، قال: نعم، قال معاوية، ارجع إلى عمك ". وتربى يزيد بن معاوية في فلسطين مع امه ميسون بنت بحدل، وكان شاعراً، ونشأ في البادية حيث أجاد اللغة والأدب والصيد. وبعد توليه الحكم، أراد يزيد ان تتم له بيعة الحسين، ولكن أهل

الكوفة ارسلو إلى الحسين يدعونه للسير اليهم ووعدوه بالبيعة، لكن ابن عباس نصحه قائلا: " إن أهل العراق قوم غدر فلا تقربنهم " وفي طريقه للكوفة، قابله الفرزدق، وعبد الله بن مطيع العدوي، ونصحوه بالعودة لكنه أهمل النصائح (٢١).

في العاشر من محرم ٦١ هـ - ٦٨٢ م، نشب القتال بين جيش العراق، ولم يكن به أحد من أهل الشام. وبين مقاتلي الحسين، في معركة غير متكافئة قُتل فيها الحسين، ودفن جسده بكر بلاء، أما رأسه فقد أرسلت إلى يزيد بن معاوية في الشام، ويذكر ان رأس الحسين دفن في عسقلان في فلسطين ونقلته الدولة الفاطمية إلى القاهرة، عندما حكمت مصر (٢٢).

ب وفاة يزيد بن معاوية، بويع بالخلافة لابنه معاوية الثاني، وكان في زمانه بيعتان، احدهما لمعاوية الثاني في الشام والأخرى في الحجاز لعبد الله بن الزبير، ولكن معاوية الثاني كان مريضا فتنازل عن الخلافة ولم تطل خلافته أكثر من ثلاثة أشهر وانزوى في بيته ومات بعد أربعين يوما (٢٣).

اضطربت الأفكار في سوريا وفلسطين، واتجهت الأنظار نحو الحجاز بعد تنازل معاوية الثاني عن الخلافة، وأجمع أمراء سورية على مبايعة عبد الله بن الزبير، ماعدا أمير فلسطين، حسان بن مالك بن بحدل، وعندما أراد شيخ بنى أمية مروان بن الحكم، مبايعة الزبير، أشار عليه عبيد الله بن زياد بأن يطلب الخلافة لنفسه، ونصره أمير فلسطين وهو خال يزيد بن معاوية ودعا روح بن زنباع واستخلفه على فلسطين وقال له: " أنى أرى أمراء الأجناد يبايعون لأبن الزبير، وأبناء قيس بالأردن

كثير، وهم قومي، فأنا خارج إليهم، وأقم أنت بفلسطين، فإن جل أهلها قومك، من لحم وجذام. وسار بن بحدل إلى الأردن فأخذ بيعتهم، وثار نائل بن قيس الجذامي وأخرج ابن زيناع من فلسطين وألتحق بالأردن، وبائع نائل لابن الزبير، وأرسل حسان كتاباً إلى الضحّاك بن قيس أمير دمشق، فلم يستجب لها فذهب إلى الجابية، وقابل بني أمية هناك، وبايعوا مروان بن الحكم، وذهبوا إلى الضحّاك، وحاربوه، في مرج وراهط، وكانت هذه المعركة بين قيس ويمن، وهما أكبر القبائل في الشام وظفروا به ففر نائل الجذامي إلى الحجاز، وعاد روح بن زنباع إلى فلسطين، ثم توجه مروان إلى مصر، وفتحها، وبايع أهلها، ورجع إلى قريه السمراء، قرب طبرية، فشكر حسان، واثنى عليه، وعاد إلى دمشق، عاصمه ولايته، وعهد مروان بالخلافه لابن عبد الملك، وبعده لعبد العزيز. وعندما تولى عبد الملك بن مروان الخلافه، اعترضته امور شاقة. ثورات داخلية، الخوراج، شيعة علي، ومناظرة ابن الزبير، ومناقسه عمرو بن السعيد (٢٤).

قبة الصخرة:

عمل ابن الزبير على بسط نفوذه على الجزيرة العربية، والمناطق الأفريقية، وجعل مكة مركز حكومته، وخشى عبد الملك من ضياع عرشه، خاصه عندما رأى الجموع الغفيرة من المسلمين تحج سنوياً، إلى الكعبة، وكذلك عندما شعر بأن مركز عبد الله بن الزبير الديني والسياسي، قد أخذ ينتشر في جميع البلاد الإسلامية، فمنع عبد الملك بن مروان أهالي سوريا من الحج إلى مكة بحجه أن عبد الله بن الزبير كان

كان يجبرهم أثناء الحج على على مبايعته، ولكن الناس كانوا يتذمرون قائلين: " كيف تمنعنا من الحج إلى بيت الله، مع أن هذه فريضه علينا ". ولكن الخليفة أجاب " قال الرسول صلى الله عليه وسلم لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام في مكة ومسجدي في المدينة والمسجد الأقصى في القدس " (٢٥).

ذهب عبد الملك بن مروان بنفسه من دمشق إلى القدس، ومن هناك أرسل رسائل إلى جميع المناطق، وحكام المدن يستشيرهم في بناء قبة الصخرة المقدسة، ليقى المسلمين من البرد والحر، كما يرغب، أيضا، في بناء مسجد ولكنه لا يرغب في أن يقوم بهذا العمل، دون استشاره رعيته، فأنته جميع الرسائل من حكام المناطق، تؤكد رضا الرعية التام، وبأنهم يعتبرون قصده قصدا دينيا. فكلف الخليفة رجاء بن حيوة، ويزيد بن الإسلام بالأشراف على بنائه، فوضعا خارطة لبناء صحن منطقته الحرم. وأمرهما بأن يبنيا بيتا للمال، في الجهة الشرقية من الصخرة، وقد اوقف على نفقات هذه الأبنية دخل مصر، لمدة سبع سنوات وبدأ عبد الملك بنائه في ٦٩ هـ وأتمه عام ٧٢ هـ وبعد أن تم يزيد ورجاء البناء بقي معهم ١٠٠.٠٠٠ دينار ذهب، فأخبرا الخليفة، الذي أمر بها مكافأة لهم ولكنهما رفضاها فأمر الخليفة بصهر الذهب واستعماله في زخرفته القبة (٢٦).

في سنة ٧٢ هـ / ٦٩٣ م توجه الحجاج بن يوسف الثقفي إلى الحجاز، ليقضى على ابن الزبير، فذهب واحتل المدينة، وحاصر مكة، وخربها بالمجانيق، وأضر بالكعبة، وقسم حراسه أبواب المسجد على البلدان،

فأخذ أهل الأردن باب الصفا، وأهل فلسطين باب جُمع، وفي هذه الحرب كما هو معروف قتل عبد الله بن الزبير، ودانت البلاد لعبد الملك، الذي توفي ولي عهده، عبد العزيز، ٨٥ هـ فعهد بالخلافة، من بعده لابنيه الوليد، ثم سليمان (٢٧).

عندما تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة، هرب يزيد بن المهلب، وقدم فلسطين، فنزل على وهيب بن عبد الرحمن الأزدي، الذي أخذه إلى سليمان بن عبد الملك، في الرملة، وتشفع فيه، ونجاه، وبعد وفاة الوليد، تمت البيعة لأخيه، سليمان، وهو في مدينة الرملة، فبايعه الناس، وهو على سطوح الصخرة، وهم أن يحول عاصمته من دمشق إلى الرملة، أو القدس، لكنه عدل عن ذلك وكان الخليفة الأموي سليمان (٧١٥ - ٧١٧)، يقيم في الرملة التي بناها، ولا تزال، منذنة المسجد الأبيض، قائمة كما رممها المماليك، وغدا هذا المسجد، بعد المسجد الأموي، في دمشق، وقبة الصخرة في القدس، الثالث بين مباني المسلمين الكبرى المقدسة في سوريا (٢٨).

بلغت السلطة الأموية أوج عزها، في عهد الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ - ٧١٥)، وهناك اثنان من الخلفاء يجدر ذكرهما، من بعده، هما عمر بن عبد العزيز، وهشام بن عبد الملك (٢٩).

كان عمر (٧١٧ - ٧٢٠) الخليفة المتعبد الوحيد في عهد اشتهر بطابعه الدنيوى، وقد تأثر بجده لأمه، ثاني الخلفاء الراشدين، (عمر بن الخطاب)، الذي حمل اسمه، ووصف بتقاه وزهده وبساطته، وكان معاوية قد ابتدع هذا كما أن عمر منع النصارى من تقلد مناصب في الدولة (٣٠).

لما بويع الوليد الثاني كان مقيماً في البرية، فافتتح أعماله بنفي سليمان بن هشام إلى عمان، وأقبل على الشراب بنهم، وجاهر به، وانغمس في الطرب والموسيقى، واقتناء الكلاب المطوّقة بقلائد الذهب، وانتهك حرمة القرآن، فففر بنو أمية منه، وتجمع أمراء قبائل فلسطين، وأقروا خلعه، ومبايعة سواه، فراودو يزيد بن الوليد، الذي أجابهم إلى طلبهم، وظل متكماً، إلى أن انتشر الوباء في الشام، فخرج العباس بن الوليد إلى القسطل، وأخوه يزيد إلى بادية الأردن، وأخذ يدعو لنفسه، وبائع الناس سرّاً، فعلم أخوه العباس، وتهدد أخاه، وأنذره بالسجن، أو إرساله إلى الخليفة، إذا لم يقلع عن عمله هذا، فلم يعقه هذا التهديد، وسار إلى دمشق، خلّسه، واحتلها، وباعه جميع أهلها، وضبط الأموال، والخزائن، وتوافد عليه أعوانه، فقدم أهالي جرش من فلسطين، وغيرهم، وكان الوليد في ضيافة نافراً من الوباء فغضب، وسير جنداً إلى دمشق، حيث انضموا إلى يزيد، ثم سار بنفسه فالتقى العسكرين، وأسفرت المعركة عن خذلانهم فيها فبايعوا له.

وقد وثب أهالي فلسطين، بتحريض سعيد وضبعان، ولدي روح بن زيناع، على عاملهم، سعيد بن عبد الملك، فأخرجوه، وولوا أمرهم يزيد بن سليمان بن عبد الملك، فدعاهم إلى قتال يزيد، فأجابوه: "لأن أهالي فلسطين كانوا ميالين لأبيه". ولما بلغهم ما فعل أهل فلسطين ولوا عليهم محمد بن عبد الملك، واجتمعوا معهم على قتال يزيد، والتقى جمعهم في طبرية، قصبة الأردن أما سعيد بن عبد الملك، عامل الوليد بن يزيد على فلسطين. فإنه حين ارتحل عن فلسطين، خرج إلى يزيد بن الوليد، وأعلمه

بما آل إليه حال هذا الإقليم، فوجه يزيد إلى أهل فلسطين سليمان بن هشام على رأس جيش ليعيدهم إلى طاعة البيت الأموي وبعث سليمان إلى سعيد وضبعان، ابني روح بن زنباع، وإلى الحكم وراشد ابني جرو بن بلقين، وإلى محمد بن عبد الملك، يمنيهم، ويعددهم إن هم دخلوا في طاعة الخليفة، يزيد بن الوليد: فأجابوا الدعوة، ورحل ضبعان بأهل فلسطين، وتفرق أهل الأردن فبار أهل طبرية، ونهبوا دواب يزيد بن سليمان، ومحمد بن عبد الملك، ولحقوا بقراهم ومنازلهم، ونزل سليمان بن هشام، بعد ذلك، الحنبرة، وقدم عليه أهل الأردن، فبايعوا ليزيد بن الوليد، ثم دخل طبرية، وتوجه إلى الرملة، وأخذ البيعة على من بها.

واستعمل يزيد بن الوليد على الأردن، أخاه إبراهيم بن الوليد، وعلى فلسطين ضبعان بن روح بن زنباع، إلا أن حكم هذه الخليفة لم يطل، فتوفي، بعد بضعة أشهر، وعهد بالأمر من بعده لأخيه، إبراهيم الذي لم يقو على مواجهة الأحداث، وآل أمر الخلافة، بعد ذلك، إلى مروان بن محمد، آخر خلفاء البيت الأموي، الذي سار إلى دمشق، من أرمينية فخلفه مروان، وأخذ البيعة لنفسه. ثم طلب إلى أهل الشام أن يختاروا لولاية أجنادهم، فأختار أهل الأردن الوليد بن معاوية بن مروان بن الحكم، ابن أخي عبد الملك و اختار أهل فلسطين، ثابت بن نعيم الجذامي. ولم تمض على خلافة مروان ثلاثة أشهر، حتى خالفه أهل الشام، وانتقضوا عليه، بزعامة ثابت بن نعيم، الذي سار إلى مدينة طبرية، وحاصر أهلها وواليها الوليد بن معاوية، فقاتله أهلها، أياماً وأرسلوا رسولاً إلى مروان بن محمد، يعلمونه أمرهم، فكتب مروان بن محمد إلى أبي الورد بن

الكوثر، وكان في دمشق، فخرج إليهم، وحينما اقترب من طبرية، خرج أهلها على ثابت ومن معه، واستباحوا عسكرهم، فانصرف إلي فلسطين، منهزماً، فجمع قومه، وجنده، ومضى إليه أبو الورد، وهزمه، ثانية، وفرق من معه، وأسر أبو الورد ثلاثة رجال من ولده، وبعث بهم إلى مروان، وهم جرحى فأمر مروان بمداواة جراحهم اما ثابت فقد استطاع الهرب وتغيب معه ابنه الرابع، ودانت فلسطين لمروان، وولى عليها الرماحس وتم القبض على ثابت، بعد شهرين من ولايته، فأرسله إلى مروان، في دمشق، وأمر مروان بثابت وبنيه، الذين كانوا أسرى لديه، فقطعت أيديهم وأرجلهم، وعرضوا في دمشق، وليكونوا عبرة لكل من تسول له نفسه، الخروج على الخليفة^(٣١).

وبعد، بانتهاء الخلافة الأموية، خرجت فلسطين من دائرة الضوء، التي وضعها فيها الراشدون والأمويون على التوالي حيث غدت في العهدين ركناً متيناً من أركان الدولة، وعصبته. فقد نقل الأمويون مقر الخلافة من مكة إلى دمشق، التي كانوا يعرفونها حتى قبل نزول الرسالة من خلال التجارة، وكانت حياة الخلفاء في دمشق حياة بذخ وترف، بالقياس إلى حياة الخلفاء السابقين في مكة، في حين أن حياة الخلفاء الراشدين في مكة موسومة بالوقار. وليالي الخلفاء في دمشق حفلت بالأبهة والسمر، ومجالس الأنس، كما أنهم استمروا التوسع في احتساء الخمر، حتى عرف يزيد بن معاوية

”بيزيد الخمر“، لإدمانه على شرب الخمر، كما عرف عن الوليد

الثاني

(٧٤٣ - ٤٤) بأنه كان يسبح في بركة خمر، ويشرب منها، حتى يهبط مستواها، ويقال إنه فتح القرآن يوماً، فوقعت عيناه على (وخاب كل جبار عنيد)، فغضب غضباً شديداً ورمى الكتاب بنباله حتى مزقه.

* * *

مراجع الفصل الثالث عشر

- (١) د. أحمد شلبي، الدولة الأموية نشأتها، (موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية)، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٤، ص ٢٤٧.
- (٢) المصدر نفسه، ص ٣٠.
- (٣) عمر الصالح البرغوثي، خليل طوطح، "تاريخ فلسطين"، القدس، مطبعة بيت المقدس، ١٩٢٣، ص ١٢٢.
- (٤) شلبي، مصدر سبق ذكره، ٣١.
- (٥) المصدر نفسه ص ٣٢.
- (٦) محمد حسين هيكل، "بين الخلافة والملك عثمان بن عفان"، القاهرة، دار المعارف، ص ١١٥ - ١٢٤.
- (٧) أحمد عباس صالح، "اليمن واليسار في الإسلام" بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، د.ت، ص ٧٥ - ٧٨.
- (٨) "الموسوعة الفلسطينية"، القسم الثاني، المجلد الثاني، بيروت، ١٩٩٠، (انظر د. نبيه عقل، "فلسطين من الفتح العربي الإسلامي إلى أواسط القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي" ص ٢٤٧).
- (٩) لي سترانج، "فلسطين في العهد الإسلامي"، ترجمه محمود عمايري، منشورات وزارة الإعلام والثقافة، عمان ١٩٧٠، ص ٤٥ - ٤٦.
- (١٠) عاقل، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٦ - ٢٩٧.
- (١١) المصدر نفسه ص ٢٩٧ - ٢٩٩.
- (١٢) د. فيليب حتى "تاريخ سورية ولبنان وفلسطين"، ترجمه د. كمال أليازجي، الجزء ٢، بيروت، دار الثقافة، ١٩٥٩، ص ٩٧ - ١٠١.
- (١٣) المصدر نفسه، ص ٩٩ - ١٠١.
- (١٤) عاقل، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٩ - ٣٠٣.
- (١٥) المصدر نفسه، ص ٣٠٢ - ٣٠٣.
- (١٦) المصدر نفسه، ص ٣٠٦ - ٣٠٩.
- (١٧) سترانج، مصدر سبق ذكره، ص ٩٠ - ٩٥.
- (١٨) المصدر نفسه، ص ٣١٨.
- (١٩) عاقل، مصدر سبق ذكره، ٣٢٠ - ٣٢١.

- (٢٠) المصدر نفسه، ص ٣١٣.
(٢١) شلبى، مصدر سبق ذكره، ص ٣٩ - ٥٠.
(٢٢) البرغوثى، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٢ - ١٢٣.
(٢٣) المصدر نفسه ١٢٤ - ١٢٨.
(٢٤) المصدر نفسه ١٢٤ - ١٢٨.
(٢٥) سترانج، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٢ - ١٢٥.
(٢٦) البرغوثى، مصدر سبق ذكره ص ١٢٢ - ١٢٥.
(٢٧) المصدر نفسه، ص ١٢٥ - ١٢٧.
(٢٨) المصدر نفسه، ١٢٨ - ١٣٠.
(٢٩) المصدر نفسه، ١٣٠ - ١٣١.
(٣٠) عاقل، مصدر سبق ذكره، ٢٧٦ - ٢٧٧.
(٣١) المصدر نفسه ٢٧٧.
